الفصل الثانى

المتنبى فى عصره

١ ـ مولده ونشأته

ولد أبو الطيب المتنبى بالكوفة سنة ٣٠٣ هـ واسمه أحمد بن الحسين بن عبد الصمد الجُعْفى ، وقد فتح عينيه على الدنيا فى حى « كندة » ، وهو حى نزله المهاجرون العرب الذين نزحوا أيام الفتوح إلى هذه البقاع ، وهم من أصل يمانى من كندة فسموا منازلهم الجديدة بأسماء منازلهم الأولى للذكرى والحنين ، وفى شعر أبى الطيب ذكريات فى هذا الحى من الكوفة وكان مفارقاً له فقال فيما يحن إليه :

أمنسىَّ السكون وحضرموتا ووالدتى وكنـــدة والسبيعا

كل هذه أماكن بالكوفة ذاتها عرفها المتنبى فى نشأته وصباه ، وكانت الكوفة من أجمل بلدان العراق ، وصفها محمد العطاردى بمجلس عبد الملك ابن مروان بقوله :

« والكوفة سفلت عن الشام ووبائها ، وارتفعت عن البصرة وحرّها فهى مريئة مريعة ، إذا أتتنا الشمال ذهبت مسيرة شهر على مثل رضراض [1] الكافور ، وإذا هبت الجنوب جاءتنا ريح السواد ووردة وياسمينه وأترنجه . ماؤنا عذب وعيشنا خصب » .

فأرضٌ هذا وصفها وهذه مزاياها هى التى ولد فيها أبو الطيب وأشرف منها على الدنيا أول نشأته . وقد قيل فى نسبه إن أباه كان يسمى عيدان وكان سقاء بالكوفة يستقى على بعير له .

ولا تثبت صحة ذلك حين نرى أن من أورد هذا الخبر فى نسب المتنبى كان

(١) الرضراض : ما دق من الحصى .

علويًّا، أو تنوخيًّا، وقد وقعت بين أبي الطيب والعلويين من أهل الكوفة والتنوخيين من أهل أنطاكية بالشام حوادث وأضغان كانت سبب جلائه عن منازل قومه وحالت بينه وبين عودته السريعة إليها ، فلا يبعد أن يكون هذا من قبيل التشنيع عليه فى نسبه وتعييره بمهنة أبيه ، وحين تمكن المتنبي من الشعر قال هذا البيت يهجو به كل باحث فى أصله ، وأنه على نباهة ذكره ومجيد فعله جزء صغير من أبيه :

أنا منْ بعضُهُ يفوقُ أبا البا حث والنجلُ بعضُ مَن نجله

وهذا البيت من قصيدة يمدح بها أبا العشائر الحمدانى ويدافع بها عن شرف نسبه، وقد شرح العكبرى مثل ذلك فقال [١] :

« المعنى : إنه فوق أبي الذى يفتش عن نسبه أى أنا فوق قوم يفتشون عن نسبي ، وأراد ببعضه الولد ، لأن الولد بعض الوالد » .

ثم يرى المتنبي لنفسه العذر فى المفاخرة لأنه يدافع عن نفسه ، ودليل ذلك فى البيت الذى يلى :

وإنما يذكرُ الجـدودَ لهمْ من نفروه وأنفدُوا حيلهْ [٢]

أما جدته فكانت همْدانية صحيحة النسب من صالحات الكوفيات ، ومن طعن فى أبي الطيب زراية بقدر أبيه لحرفته لم يستطع الطعن فيه من جهة أصله الجعفى فكان القاضى أبو الحسين بن أم شيبان الهاشمى الكوفى يثبت له هذا الأصل [٣] .

فالمتنبي إذن صحيح النسب فى عروبته من جهة أبيه وأمه ، وبطونهما كانت معروفة بالكرم والفروسية ، ولها أيام مقرونة بالحمد والذكر كما ورث الإباء والعنجهية عن قومه الذين قال فيهم :

وإنى لمن قوم كأنّ نفوسهم بها أنَفٌ أن تسكن اللحم والعظما

---

(١) ج ٣ ص ٣٦٧ من شرح الديوان .

(٢) نفروه : من المنافرة وأصلها فى الجاهلية الاحتكام إلى حكيم فى أى النفرين أجل وأكرم وأشجع . والمغلوب منفور والغالب نافر ، وأنفدوا أذهبوا من النفاد .

(٣) راجع « نزهة الألباء فى طبقات الأدباء » من ص ٣٦٦ — ٣٧٤ طبع القاهرة سنة ١٢٩٤ .

وقد أفرد المتنبي لجدته الكوفية الصالحة مرثاة تعد من روائع الشعر العربي كله أعطانا فيها مبلغ تعلقه بهذه المرأة التي كان لها تأثير كبير في تكوينه الروحي ، وقد صرح في هذه المرثاة بأنه ترك جدته واغترب ملتمساً لها وله رزقاً ومجداً ، وحين وصلت إليه منها دعوة للعودة واستجاب لها بعد عناء وكاد يبلغ الكوفة أنذره أعداؤه بالمنع من الدخول فمضى إلى بغداد وقلبه محترق ملتاع ، وأرسل إليها بأن توافيه إلى حيث يلتقيان لكن الفرحة بهذا الأمل وشدة ما عانت في سبيله قضتا عليها قبل أن يصل إليها ؛ فتفجر حزنه ورثاؤه في قصيدة تفيض بالمحبة والإحساس والذوب في الشوق والأسى :

طلبت لها حظًّا ففاتت وفاتني ... وقد رضيت بي لو رضيت به قسْما

٢ ـ صورته الجسمية والروحية

أما صورته الجسمية فأكاد أتخيلها في فتى مهزول الجسم منتفض الأعصاب جدي الملامح سوداوي المزاج وقد رسم المتنبي لنا لمحة منه في قوله :

وإني لأعشق من أجلكم ... نحولي وكل امرئ ناحل

ووصف شكله في غير النحول بالسقم الذي كان يلازمه مع إلحاح الحزن عليه والسهاد فقال :

جمعتْ بين جسم أحمد والسقْ ... م وبين الجفون والتسهيد

وكان للمتنبي شباب وفتوة ورونق ووسامة وله شعر أسود كان في صباه غزيراً فبدا وفرَةً تنوس على أذنيه ، أما الوفرة فقال فيها :

لا تحسنُ الوفرَةُ حتى تُرى ... منشورة الضفرَين يومَ القتال

وأما شبابه فبكى عليه بقوله :

ولقد بكيت على الشباب ولمتي ... مسوَدّةٌ ولماء وجهي رونقُ

ثم شاب فلم يصبغ شيبه بالحناء وقال :

ومن هوى كل من ليست مموهة ... تركتُ لوْنَ مشيبي غير مخضوب

ومن هوى الصدق في قولي وعادته ... رغبتُ عن شعر في الوجه مكذوب

وأجد أنه شاب قبل الأوان من قوله :

راعتك رائعة البياض بمفرق لو أنها الأولى لراع الأسحمُ[1]
لوكان يمكننى سفرتُ عن الصبا فالشيبُ من قبل الأوان تلثمُ

ولو أتيحت هذه الأبيات لمصور فى أيامنا أو مثّال نحاّت منطلق الخيال لصور لنا أبا الطيب فيها ، فهى سبيل واضحة لتمثيله وإبراز صورته .

وأما روحه فكانت نبيلة شابة كل عمره ، أفليس يقول فيها :

وفى الجسْم روحٌ لاتشيب بشيبه ولو أن ما فى الوجه منه حرابُ
يبدّلُ منى الدهرُ ما شاء غيرها وأبلغ أقصى العمر وهى كعاب

وقد صور روحه فى شعره أصدق تصوير فهى أبية جبارة حقـًا حين قال فيها :

وإنى لمن قوم كأن نفوسَهمْ بها أنفٌ أن تسكن اللحم والعظما

وكل مفاخره تعجّ بالتعاظم والتباهى ، فهو يبدو فيها حيناً بصورة محارب شجاع ، وتارة فى وقار فيلسوف حكيم ، وآونة فى ثياب واعظ رشيد أو وصّاف ساحر ! ..

وكان يرفع هذه النفس فوق نفوس البشر حتّى يعجب لنفسه ويزهو بما رُكب فى طبعه من المزايا .

وكفاه أنه عاش نبيل الروح لم يرض بالهوان والدون ، وكان يحاسب نفسه على الساعات التى تمر به من غير عز فيقول :

فلا غبرتْ بى ساعةٌ لا تعزنى ولا صحبتنى مهجةٌ تقبلُ الضيما

وكان يسمو بنفسه إلى الملوك فقال لأبى العشائر الحمدانى :

شاعر المجد خدْنهُ شاعر اللف ظ كلانا رب المعانى الدّقاق

وقال لكافور :

وفؤادى من الملوك وإن كا ن لسانى يُرى من الشعراء

لكن شرف الكبرياء الذى جلله والتمرس بالجد فى حديثه ومعاملته ، نفـّرا منه القلوب التى لم تستطع إلا أن تقر له بميزات لم تكن فى أمثاله ، فكان الكبراء يغتاظون من خيلائه والشعراء يحسدونه على قصيده ويضيقون بمكانته وهمته .

---

(١) فى هذا البيت تبدو النظرية النسبية واضحة .

ونسب إلى الجنون حين اشترط على سيف الدولة أن ينشده شعره قاعداً كما نسب عند حسّاده إلى الغرور والادعاء فى مواقف من حياته وشعره .

لكن البادية بدت صريحة فى حياته الروحية ، فكان صريحاً وشجاعاً ، معتزًّا بسيفه الذى كان لا يكسب الفضل إلا من مضاربه كما كان على الدوام صاحباً له وحامياً .

ولم يكن يعيب أبا الطيب غير الحرْص على المال أو السعى إليه ليحقق به مراد نفسه والمجد الذى ينشده ولكى لا يتخلف عمن تقدموه بامتلاك الدنانير ، على أنه ذكر فى شعره مذمة لمن يجمع المال . . .

٣ ــ قصة حياته

جاء شعر المتنبى موضحاً لسيرته وحوادثه ، ولم يتفق لشاعر عربى برزت أطوار حياته وعصره فى شعره مثلما اتفق لأبى الطيب ، ففى ديوانه صور نفسه ومزاجه وخصائص فكره وضروب المحن التى لازمت زمنه ولابست أهله وحكامه ، ونستطيع أن نقسم سيرته وحوادثه إلى أطوار أربعة :

١ ــ الطور الأول

نشأ أبو الطيب وشب بالكوفة متنقلاً بين الوراقين ، مستجيباً لوعى فى تفكيره مبكر ثائر ، متتبعاً ما يقع بين يديه من كتب ودفاتر فإذا سئم القراءة مضى إلى مجالس العلماء يتلقى عنهم أصول الجدل واللغة والبيان ، ثم دلف إلى فريق من قومه اختصوه بالتقدير فأحاط علماً بأنباء الحكام وسياسة الدولة مما كان يزيد فى شجونه وأضغانه ، ويتلفت إلى المحظوظين والمنعمين فيجد نفسه صفر اليدين ملموزاً من حاسديه ، لكنه يحسّ العزاء فى جدته التى كانت تحبه وتفديه ، ولم يجد بدًّا من الانطلاق إلى البادية ، لعله يلقى حظًّا وخيراً ، فلم تتحقق بغيته فيها ، ولم يكتسب إلا مودة ومعرفة ، فارتد إلى جدته يقاسمها الحسرة والضغينة إذ عانت قبله من العلويين ما عانت ، وإن سعوا إليها بعد حين بالهوادة والمعروف .

وفى عام ٣٢٠ هـ راح إلى بغداد دون رضى جدته فشهد ألواناً من الخطوب والأحداث من تنازع الأمر بين الموالى والولاة وتضارب الأهواء بين الشعب والأمراء ، وكان يرجو هنالك نصيبه من الرزق يمدح من يستحق المدح فتأبى على هؤلاء المتنابزين المتربصين ورفض أن يثنى بشعره على أحد منهم ، بل زاد حقده وثارت هواجسه ، وقد صور هذا الشعور فى أبيات كثيرة موزعة فى قصيده .

وضاقت عليه بغداد بما رحبت فارتحل إلى بادية الشام وجال فى مدنها وقراها حتى هبط دمشق بعد عام وهو يرسم الخطط ويبيت فى نفسه أموراً خطيرة يحقق بها مجداً وانتقاماً ، فمر بحلب وأنطاكية واللاذقية حيث احتفى به نفر من الأعيان والكبراء كسعيد بن عبد الله الكلابى ، وأبى المنتصر الأزدى ، وبدر بن عمار الأردنى ، ومحمد بن زريعة الطرسوسى وغيرهم . لقد مدحهم بشعره على عادة العرب ولا يجوز أن نشبهه بالشعراء الجوّالين كما رأى الأستاذ بلاشير [1] إذ سبقهم وتقدم الأكبر منهم ، ولم يكونوا من أنداده . وحظى لدى أولئك الأمراء فظفر منهم بالهدايا والعطاء ، ثم ارتحل عنهم ومضى إلى طرابلس الشام ، فلقى فيها إسحق الأعور المعروف بابن كيغلغ وكان أميًّا لا يقدر الشعر قدره ، فأوعز إليه حساد لأبى الطيب بأن يلتمس منه مدحه فاعتذر الشاعر ، وهاج كيد المتطاول فلم يجد أبو الطيب مناصاً من هجوه — إذ حال بينه وبين المسير وسد عليه الدرب — فهجاه بقصيدة لو جمع ما قال الفرزدق والأخطل وبشار فى التشنيع والإقذاع لما رجح على ما فى قصيدة أبى الطيب هذه ، وقد جاء فيها من الأبيات التصويرية اللاذعة غير الإقذاع قوله فى وصف ابن كيغلغ :

وإذا أشارَ محدثــاً فكأنه قردٌ يقهقه أو عجوز تلطمُ

وفى رواية ثانية أن أبا الطيب وصل به التجوال إلى اللاذقية حيث لقى معاذ بن إسماعيل فرآه حسن السمت فصيح اللسان جدى القول فتحاورا وتبادلا الرأى وقد بلغ الزهو من المتنبى مبلغه حتى زعم معاذ أن أبا الطيب قال له أنا نبى مرسل ، ثم رأى فيه من البراعة والاقتدار ما جعله يؤمن بما ادعى من النبوة

(١) مقال بلاشير فى « معلمة الإسلام » ٢٦٥ .

والمعجزة ، وإلى هذه الزورة للاّذقية أشار أبو العلاء المعرى فى رسالة الغفران[1] ودفع عن شاعره تهمة النبوة بقوله : « لأن نطق اللسان لا ينبئ عن اعتقاد الإنسان ، وكان قد وصل إلى اللاذقية كلام نسب إلى أبى الطيب يعارض به القرآن » .

وقيل من أجل ذلك حبسه أمير حمص حتى استتاب ، وليس من المعقول هذا الادعاء ، فقد خلط الرواة بين النبوة المزعومة وبين تسمية المتنبى نفسه بالعاوية ، وكان رؤساء العلويين قد حقدوا على أبى الطيب فزعموا أنه ادعى النبوة ، وقد خافوا أن يستهوى القلوب بسحر بيانه ونبل غايته ، فيأخذ الزعامة منهم فنبزوه وأهانوه .

إن شجاعة أبى الطيب هى التى جعلته يقتحم الأرض التى ضمت طوائف من العلويين فيهم الفاطمية والباطنية وإليهم أشار بقصيدته الدالية التى استشفع بها :

فلا تسمعنّ من الكاشحين ولا تعبأنّ بعجل اليهودْ

والحقيقة السياسية فى النبوة المزعومة أن أبا الطيب حين مر بقبائل البادية وأعمال الشام ، وتلقى دعوة القوم بالحفاوة والرضى لما شهدوا من نفاذ علمه ونبل مقصده ورجاحته ، وقد استجاب له بالتأييد منهم بنو كلب ، كان يدعو للعروبة ورد الأعاجم إلى ما كانوا عليه قبل أن يتطاولوا وينشدوا المساواة بولاة أمرهم ، ولا أشك فى أنه تزعم حركة عربية ثورية غرضها سياسى لا دينى وقد آل أمره إلى السجن والاعتقال بعد المطاردة والتشريد ، وفى سجنه كان عظيم النفس لكن عض الحديد والجوع أجبراه على التماس العفو من الحاكم فى ذنب نواه ولم يفعله ، ويتبين هذا من قوله فى القصيدة الدالية :

وكن فارقاً بين دعوى أرَدْتُ ودَعوى فعلتُ بشأو بعيدْ

---

(١) راجع كتاب « أبو العلاء ناقد المجتمع » الطبعة الأولى بدار الفكر العربى بمصر للمؤلف سنة ١٩٤٧ . والطبعة الثانية بدار المعارف بمصر وبيروت سنة ١٩٦٣ .

وعطف قلب الحاكم على الغريب وأيقن أن الوشاة زوروا أقواله فقال :

بيدى أيها الأمير الأريب   لا لشىء إلا لأنى غريب
عائب عابنى لديك ومنـــه   خلقت فى ذوى العيوب العيوب [1]

وقد أفرج عنه الحاكم بوساطة بعض التنوخيين الذين سعى إليهم المتنى بالشكر بعد خروجه من السجن .

ولا أبرّئ أبا الطيب من هذه الأسباب التى دعت المتقولين لأن ينبزوه بالنبوة ويرموه بالبهتان، فلولا الدعوة السياسية التى ظهر بها على القوم مقيماً ونازحاً، متودداً إليهم أو داعياً إلى تكتل وائتلاف بين العرب عامة ، لما هاج عليه أعداؤه، لقد نقموا منه أن ادعى النسب العلوى وتشبث به ثم زين له ذكاؤه وكبرياؤه أن يشبه نفسه بالأنبياء والمرسلين حين تجهم له شانئوه وحساده فقال :

أنا فى أمة تداركها اللهُ   غريبٌ كصـــالح فى ثمود
ما مقامى بأرض نخلةَ إلا   كمقام المسيح بـــين اليهود

وما لبث أن خيل إليه أنه أرفع من الملوك والكبراء فقال يريد نفسه :

تغربَ لا مستعظماً غير نفسه   ولا قابلا إلا لخالقه حكمْا

وقال :

وفؤادى من الملوك وإنْ كا   ن لسانى يرى من الشعراء

وكان طموحه وأمله يجتمعان مع ثورة روحه على المنافقين والملفقين فيجد نفسه أفضل منهم ويخاطر فى مطلبه الجسيم بالمهج الجسام ليحقق مراده ويقول :

أى محـــل أرتـــقى   أى عظيم أتـــقى
وكل ما خلق الله   ومـــا لم يخلـــق
محتقـــر فى همتى   كشعرة فى مفرق

---

(١) ورد فى مقدمة القصيدة الدالية بنسخة الديوان المطبوع سنة ١٨٦٠ للميلاد بوقوف المعلم بطرس البستانى « ووشى به قوم إلى الوالى وقالوا إنه انقاد إلى كثير من العرب وقد عزم على أخذ بلدك فاعتقله فكتب إليه » وهذا محض الصواب فى الرأى والحقيقة . ص ٣٠ من الديوان .

ب — الطور الثانى

خرج المتنبي من سجنه لا يلوى على شيء ، وإذا هو بعد سنين يجيء أنطاكية فيمدح أميرها أبا العشائر الحمدانى ، ويزور سيفُ الدولة هذا الأمير ، وأنطاكية فى إقطاعه ، فيقدم أبو العشائر شاعره المتنبي لأمير حلب ، وكان المتنبي قد مدح نفراً من الأمراء ونال عطاياهم ورضاهم .

وبدأت الصلة بينه وبين سيف الدولة منذ ذلك اليوم فدعاه لمديحه وضيافته فقبل المقام لديه بشروط تضمن حريته وكرامته .

كذلك بدأ أبو الطيب يحيا الطور الثانى من سيرته فبقى فى حلب من سنة ٣٣٧ حتى سنة ٣٤٥ وفى هذا الطور قال أروع شعره فى تصوير المعارك والوقائع ، إذ كان يحضر مع سيف الدولة حروبه لبيزنطة ويبدى ضروباً من البطولة والمغامرة ، إذ كان فارساً مغواراً ، وقد ازدادت معرفته بالسلاح والحرب منذ لزم سيف الدولة.

ووجد المتنبي ضالته فى شخصية سيف الدولة وطالما جاب الآفاق باحثاً عن مثلها ليجعلها موضعاً لشعره يصور فيها الإباء والفروسية متجليين فى إنسان عظيم حتى وجد أمير أحلامه سيف الدولة الحمدانى فأودعه آماله الجسام التى عجز هو عن تحقيقها فى وحدة العرب ، فقال له :

إذا العرب العرباء رازَتْ نفوسها ... فأنت فتاها والمليك الُحلاحلُ
أطاعتك فى أ واحها وتصرّفت ... بأمرك والتفت عليك القبائلُ

لكن أمير حلب خيب — أخيراً — شاعره بتحريض من حساده ، كان فى مقدمتهم أبو فراس الحمدانى والنامى أبو العباس والسرى الرفاء وغيرهم ، لقد نغصّتْ هؤلاء مكانة أبى الطيب عند سيف الدولة فآذوه بالدسّ والوقيعة ، وكان لتعاظم أبى الطيب أثر فى تنكر الأمير لشاعره الذى قربه وأحبه ومنحه آلاف الدنانير وأقطعه من الملك ما يغنيه ، ولم يكن الشعر وحده هو الذى ربط بين سيف الدولة وبين أبى الطيب ، فإن آمالاً كباراً فى طلب المعالى واستعادة الأمجاد والبلاد كانت تجمع بين الأمير والشاعر — وكان الأمير شاعراً أديباً وسياسيًّا

خطيراً ، بصيراً بالنقد والبيان فوجد فى شعر صاحبه وحديثه صدّى لما يجيش فى خاطره ، بل رآه فى قصيده مخلداً لمجده فاستخلصه لنفسه وكرمه أجل تكريم . لكن أبا الطيب خالف عن عادة الشعراء فكان يستأذن أميره فى إلقاء شعره جالساً فزاد ذلك فى غيظ حساده، ولعل سيف الدولة كان فى سره لا يطيق تعاظم المتنبي ومخاطبته إياه بلسان الملوك وكأنه من أنداده ، فلما رآه متمادياً فى تعاليه رثى لشعرائه الذين فاتهم كثير من تقديره ونعمه ، وإن لم يفتهم النيل من أبى الطيب وتسفيه شعره . وكان ثم أشياء تترامى إلى سمعه فلا يأبه لها ، تثور حيناً فى نفسه وحيناً تتطامن وتستكين ، حتى رآه يوماً فى مجلسه يحاور أبا عبد الله بن خالويه النحوى وما زال الشاعر بالنحوى يردّه عن خطله ويسفهه حتى أفحمه فسحب ابن خالويه — لعجزه عن الرد وحَصَره فى الحجة — من كمه مفتاحاً من حديد وأشار به إلى أبى الطيب فثارت فى الشاعر عنجهيته وقال له : ويحك أيها الأعجمى، لم يبق إلا أنت تخوض فى العربية ! !

ولم يحتمل النحوى الأرعن هذه المهانة فضرب بالمفتاح وجه المتنبي حتى سال دمه على خده وثيابه ، وكان سيف الدولة يسمع ويرى غير عابئ بغضبه ، فلم يجد مناصاً من الانصراف والفراق .

وسواء أصحت قصة المتنبي مع ابن خالويه[1] وغيره من المتنافسين فى الكيد له عند أمير حلب ، أم كانت من جملة الأسباب التى زهدت أبا الطيب فى البقاء بالشام وجعلته ينفس عن كربه فى شعره تلميحاً حيناً وتصريحاً أحياناً ، وفى حضرة الأمير أو فى غيبته ، فإن أبا الطيب لم يجد مناصاً من الانطلاق وفى قلبه تموج لواعج الحيرة والألم والحب العظيم !

خرج أبو الطيب من مجلس سيف الدولة ومن بلده مغلوباً على أمره لا لأنه فارق العز والخير والمجد فحسب، بل لأنه ترك أرضاً تسير فوقها فتاة أحبها من غير أمل ، تلك « خولة » أخت سيف الدولة التى أضناه هواها ، وقد آسفه أن يميل قلبه إلى ما تأبت عليه تقاليد قومها، فتحامل على نفسه وفارق الرجل العظيم الذى أناط به آمال العروبة، ومضى من عنده بعد تسعة أعوام قال فى خلالها أروع قصائده ، وتصدى من أجلها للحسد والشماتة والعدوان ، وكان ذلك سنة ٣٤٦ هـ .

---

(١) « الصبح المنبى » ص ٤٥ طبعة دمشق .

حـ — الطور الثالث

فارق أبو الطيب حلب ووجهته دمشق لأن حمص التى أحبها [١] كانت من أعمال سيف الدولة فلم يذهب إليها [٢] بل اتخذ طريقه إلى دمشق وكان عليها من قبل كافور حاكم مصر وال يهودى يعرف بابن ملك . فلما نزلها أبو الطيب طلب منه واليها أن يمدحه بشعره أسوة بغيره فرفض وكره المقام بدمشق من أجله ، لكن هذا اليهودى جعل كافور الإخشيدى يطلب أبا الطيب ، فسار إلى الرملة فى الجنوب وتلقاه أميرها الحسن بن طغج بالتكريم، إذ حمله على فرس بموكب ثقيل وقلده سيفاً محلى وأعطاه هدايا غالية ، فمدحه أبو الطيب بقصيدة أشار فيها إلى ما لحقه من تهديد ووعيد من الأدعياء والحساد .

ولما كتب كافور إلى أمير الرملة فى طلب أبى الطيب لم يجد بدًّا من الرحيل إليه ، وأقبل المتنبى على كافور مصر فاحتفى به ، وأمر له بمنزل ووكل به من يخدمه ويعنى بأمره ، ثم خلع عليه الخلع وطالبه بمدحه ، فاستجاب أبو الطيب على حذر وسخرية وحمل نفسه على أن يقول ما لا يرضيه فقال أول أمره معه قصيدته التى كان مطلعها :

كفى بك داءً أن ترى الموت شافيا ... وحسب المنايا أن يكن أمانيا
تمنيتها لما تمنيت أن ترى ... صديقاً فأعيا أو عدوًّا مداجيا

ولم يستطع أن يشترط على كافور ما اشترط على سيف الدولة وهو ينشده شعره فوقف بين يدى الإخشيدى يلقى شعره وكان كله مدحاً مبطناً بالتهكم والاستهزاء ، مواجاً بالهم والأسى .

ووالله ما أدرى مبلغ العنت فى نفس المتنبى إذ كان ينظم تلك الأماديح المموهة أكان ينظر إلى وجهه بالمرآة وهو فاغر فاه بضحك خافت خشية أن يراه عليه أحد أعوان كافور أو عيونه ، حتى إذا فرغ من سبك تلك التصاوير المزورة قطّب حاجبيه ليمحو أثر الضحك من على وجهه وسوّى ثيابه ولاث عمامته

---

(١) كان يقول : أحبُّ حمصاً إلى خُناصِرَة ... وكل نفس تحب مَحْيَاها
(٢) الصبح المنبى .

وأقبل فى المجلس الحافل ، على كافور يقول له مادحاً سواده :

إنما الجلد ملبسٌ وابيضاضُ الـ ـنفس خيرٌ من ابيضاض القباء

وكم غالى فى ذلك المديح ، حتى كاد يصرخ به المديح نافراً مستجيراً ، لقد كان يقول له وقد سماه أبا المسك :

وبحرٌ أبو المسك الخضمّ الذى له على كل بحر زخرةٌ وعبابُ

تجاوز قدر المدح ، حتى كأنه بأحسن ما يثنى عليه يعابُ

ولقى أبو الطيب حفاوة من كافور أول الأمر فكان يزهو بنفسه وينال من الشعراء الذين يحضرون مجلس كافور كما كان يفعل فى مجلس سيف الدولة ، فكرهوه وغضبوا عليه وراحوا يدلون على مواضع الهزء والتهكم بشعره المحسود ليدسوا له عند الحاكم والوزير .

وكانت المطامع تغرى أبا الطيب وتزين له استغلال كافور واسترضاءه فهو يريد منه ولاية وحكماً ، فوعده بذلك ، وماطل متهيباً شأنه وطموحه ، ولما ألح المتنبى قال كافور لبعض بطانته :

هو فى الفقر وعدم العون سمت به نفسه إلى النبوة فكيف يكون أمره إذا أصاب الولاية [1] ؟

وكان كافور أديباً سياسيًّا فلم تخف عليه خافية مما جاء بشعر أبى الطيب لكنه احتمله على مضض لعله يكتسب مودته ويظفر بمدحه ، وتنازعت حياة أبى الطيب وهو فى مصر عداوة من الحساد والمتبرمين به لا تقل عما لقى فى حلب ، وقد أصابته الحمى فطرحته فراشه حتى شفى وقال فيها قصيدته الميمية التى يقول فيها :

نزلتُ بأرْض مصرَ فلا ورائى تخب بى الركاب ولا أمامى

ولما صار ود الناس خبـًّا جزيتُ على ابتسام بابتسام

لقد أقام بمصر كارهاً ضجِراً ، وكان يسكن على مقربة من قصر كافور ومن مجلسه ويظهر هذا من قوله :

---

(١) « المغرب فى حلى المغرب » لابن سعيد الأندلسى تحقيق الدكتور زكى محمد حسن والدكتور شوقى ضيف والدكتورة سيدة إسماعيل كاشف الجزء الأول طبع جامعة القاهرة سنة ١٩٥٣ ص ٢٠٠ .

أرى لى بقربى منك عيناً قريرةً ولكن قرباً بالبعاد يشابُ

ولما ضاقت به مصر وضاق بها أعدّ العدة للرحيل ، وكان موسم العيد يستقبله كافور بالفرحة ويوزع فيه الهدايا على كبار جنده وحاشيته ، وكان الموسم سانحة مواتية للهروب ، إذ أن كافوراً حال بينه وبين السفر ، لكن المتنبى خلص ليلاً فسرى يطلب النجاة ويطوى الفلاة وفر بماله ورجاله وإبله وخيله حائراً فى دربه ، أيكون إلى نجد والحجاز أو يمضى إلى العراق ؟ وطلبه كافور ففاته ، وقد غلب الشاعر الحنين إلى موطنه الأول فضرب فى البادية إلى الكوفة ، بعد أن أقام بمصر أربع سنوات ، وقبيل انطلاقه منها قال قصيدته المشهورة :

عيدٌ بأية حال عُدتَ ياعيدُ بما مضى أم لأمر فيك تجديد

أما الأحبّةُ فالبيداءُ دونهمو فليتَ دونك بيداً دونها بيدُ

لكنه وجد بمصر من عطف عليه وشجعه وأراه من نفسه ما استحق عليه المدح فى حياته والرثاء بعد موته وهو الأمير أبو شجاع فاتك الذى اختصه أبو الطيب بأصفى المدح وأعمق الرثاء فلقد قال فى مدحه :

كفاتك ودُخولُ الكاف منقصةٌ كالشمس قلتُ وما للشمس أمثالُ

أبو شجاع أبو الشجعان قاطبةً هوْلٌ نمتهُ من الهيجاء أهوالُ

ولما مات رثاه بعد خروجه من مصر[1] ذاكراً له أعز ذكرى فى قصيدتين من أروع شعره وهاجياً كافوراً بمثل قوله :

أيموت مثل أبى شجاع فاتكٌ ويعيش حاسده الخصى الأوكع[2]

وهاجته الذكرى سنة ٣٥٣ إذ كان يسرى الليل ويقلب عينيه فى النجوم فقال قصيدته التى أولها :

حتّام نحنُ نسارى النجم فى الظلم وما سراهُ على خُفٍّ ولا قدم

فأخذ يذكر فاتكاً ويرثيه بقوله :

لا فاتكٌ آخرٌ فى مصرَ نقصده ولا له خلَفٌ فى الناس كلهم

عدمته وكأنى سرت أطلبهُ فما تزيدنى الدنيا على العدم

---

(١) يؤلف الدكتور زكى المحاسنى كتابه الجديد (المتنبى فى مصر) وفيه يبين أنحاء البحث والدراسة فى قضية « فاتك » المخلص للمتنبى وشعره فيه وعلاقته بسياسته التى كان يرتاب منها كافور .

(٢) الأوكع : الجاف الصلب .

د — الطور الرابع

لبث أبو الطيب فى مصر أربع سنوات وبضعة أشهر مكرماً هانئاً حيناً ، ومحسوداً منغصاً أحياناً ، وطامعاً منذ أقبل على حاكمها الإخشيدى كافور بما لم يطمع بمثله عند سيف الدولة الذى أغناه بالعطايا والهبات عن التماس المزيد من المال . فكان يلمّح تارة فى شعره إلى ما يريد وتارة يصرح فيقول :

وغير كثير أن يزورك راجلٌ فيرجع ملكاً للعراقين[1] واليا

ويكرر الرجاء بإنجاز الوعد فيقول لكافور :

إذا لم تنط بى ضيعة أو ولايةً فجودك يكسونى وشغلك يسلب

وبقى أبو الطيب يرجو من كافور أن يوليه صيداء من بلاد الشام أو سواها من الصعيد ، وكافور يماطل ويروغ منه بالحيلة والترضية بالذهب ، حتى دبّ اليأس فى صدر أبى الطيب وسئم المقام لكن لازمه السقام وملّه الفراش ، فحدثته نفسه بالرحيل لولا صديقه « فاتك أبوشجاع » الذى كان يعزيه ويسليه ، فلما أدركه الموت أعد أبو الطيب كل ما يحتاج إليه فى السفر وأرسل إلى كافور يستأذن فى المسير ، فرفض وجعل يعلله بالبقاء ويمسكه بين إشفاق وخشية من التعريض به والتشنيع عليه ، لكن المتنبى كان قد أحكم الخطة — كما قدمت من قبل — وفضل العودة إلى بلده .

وكان فى صدره من السخط والموجدة أشد مما كان وهو يغادر سيف الدولة ، مضى يعانى خيبة فادحة وندماً أليماً ، وقد تمثل له سيف الدولة الذى علق عليه الأمل ، ثم تخيل كافوراً الذى راغ منه وضحك بالتعليل والمطال ، فعبر عن غيظه وغمه بقصيدة العيد وهجا فيها كافوراً والبلد الذى ضمه ، ومضى حتى دخل البلد الذى احتوى قبر جدته وذكريات نشأته وصباه .

ارتدّ إلى الكوفة بعد عراك عنيف بينه وبين عبيده ومرافقيه وبينه وبين نفسه ،

---

(١) البصرة والكوفة .

حتى دخل موطن المرأة التى أعدته للحياة الرفيعة ولكن الموت كان أسبق إليها وصار يهوى لمثواها التراب وما ضما ، وها هو ذا يرى الكوفة بعد ستة عشر عاماً (٣٥٠ — ٣٥١ هـ) غير عابئ بالشامتين والذين صدوه عن العودة إليها ظلماً وحقداً ولا مكترث لما ينتظره من مكايد جديدة .

وشاء تعاظمه أن يقول وهو ينيخ الركب ويلقى أوجه البلد :

فلما أنخنا ركزنا الرما ح بين مكارمنا والعلا
وبتنا نقبل أسيافنا ونمسحها من دماء العدا
لتعلم مصر ومن بالعراق ومن بالعواصم أنى الفتى
وأنى وفيت وأنى أبيت وأنى عتوت على من عتا

فعبر أبو الطيب عما فى نفسه . وكان يتحدى هؤلاء الذين استكرهوا طموحه وهواه وجبهوا شوقه للمعالى ونزوعه إلى المجد .

وأقام بالكوفة مثقلاً بالذكريات ، تتنازعه مرة إلى مصر حيث يقيم كافور الذى خيب أمله وفاتك الذى أحبه وبرّه من غير مصلحة ولا غاية فقال فيه قصيدة ، وقد صنع تفاحة من الند وضع عليها اسم فاتك فمنها قوله :

يذكرنى فاتكاً حلمه وشىء من الند فيه اسمهُ
ولست بناس ولكننى يجرد لى ذكره شمهُ[1]

وتثور به الذكرى مرة أخرى إلى سيف الدولة فيتجاذبه الحنين إليه ويعاوده الأمل الذى عقده عليه بالرغم مما وقع له فى حماه ، فقد نُعِىَ له فى مجلسه شماتة وكيداً .

ولم ينم أبو الطيب على هذا اللؤم البغيض فقال قصيدة فيها هذه الأبيات[2] :

جزاءُ كل قريب منكم مللُ وحظّ كل محب منكمُ ضَغَنُ
رأيتكم لا يصون العرض جاركمُ ولا يدر على مرعاكمُ اللبنُ
وتغضبون على من نال رفدكمُ حتى يعاقبه التنغيص والمننُ

(١) وفى رواية : « يجدد لى ريحه شمه » .
(٢) تاريخ هذه القصيدة سنة ٣٤٨ للهجرة .

يا من نعيت على بعد بمجلسه ... كلٌّ بما زعم الناعون مرتهنُ
قد كان شاهدَ موتى قبل دَفنِهمو ... جماعةٌ ثم ماتوا قبلَ من دَفنوا
مما أضر بأهل العشق أنهم ... هَوُوا وما عرفوا الدنيا ولا فطنوا

فلما عاد إلى الكوفة عادَهُ الشوق إلى صديقه العظيم ، كما أن سيف الدولة لم يصبر على فراق شاعره فمنذ بلغه أن أبا الطيب صار إلى الكوفة أرسل ابنه من حلب يدعوه إليه ومعه هدية غالية ، ولعل هذا الأمير الكريم شاء أن يجبر خاطره وهو أدرى بطبع المتنبي وطموحه فتقبل الهدية وأرسل إليه عام ٣٥٢ هـ قصيدته التي قال فيها :

ما لنا كلنا جوٍ يا رسول ... أنا أهوى وقلبك المتبــولُ
من عبيدي إن عشت لي ألف كافو ... رٍ ولي من نداك ريفٌ ونيلُ

وبقي أبو الطيب يبعث بشعره إلى أميره متوداً حامداً ، والأمير يستعجله العودة إليه وهو متريث متردّد ، وقد عنّ له قبل أن يتلقى دعوة سيف الدولة أن يخرج من الكوفة إلى بغداد ليستطلع عن قريب حياة الناس وسياسة الحكم فيها وهو العليم بأسباب الاضطراب ومظاهر النقمة في ذلك العهد ، وكان أول الناقمين على أولئك الأعاجم الراغبين الذين دخلوا في شؤون الدولة ليتقاسموا المغانم فيها والمناصب.

واتفق أن كان في بغداد ، حين قدومه عليها ونزوله على صاحبه عليّ بن حمزة البصري ، طائفة من حساده ولامزيه . والبصري هذا هو الذي شهد للمتنبي بالخلال المحمودة حتى تناقلها الرّواة عنه وكان يروي شعر أبي الطيب في محمدة وإجلال .

وفي بغداد أقام أبو الطيب كدأبه متعاظماً معرضاً بالوزير المهلبي الذي زين للشعراء واللغويين أن يكيدوا لضيف البصري في مطارحاته ومجالسه ، فتألبوا عليه بالهجاء وأعادوا إلى الخواطر تشبث المتنبي بادعاء العلوية فراحوا يلمزون نسبه من جديد ويصمونه بالشح والتقتير .

أما أبو الطيب فزادهم غيظاً بالتأبي عليهم وعلى خليفتهم العباسي ورجال قصره وحكمه ، مردداً شعره على كل من كان في مجلسه دون تهيب ولا تحرج حتى عاد إلى الكوفة ولم يرجع إلى بغداد حتى مات الوزير المهلبي خصمه وظالمه . وبعد عودته ازدادت نقمته على الأوضاع السياسية ومستغلي الحكم من الموالي

والأعاجم ، وارتدت إلى باله صورة سيف الدولة وما لمس من بطولته وكرامته ، وكأنه يستنجزه وعداً . فأرسل إليه قصيدته التى قال فيها :

أنت طول الحياة للروم غاز ... فمتى الوعد أن يكون القفول
وسوى الروم خلف ظهرك روم ... فعلى أى جانبيك تميل
ما الذى عنده تدار المنايا ... كالذى عنده تدار الشمول

ولما ترامى إلى سمعه نبأ وفاة خولة أخت سيف الدولة فجرّ فؤاده النبأ وهاجت شجونه وانبعث فى نفسه هوى دفين طالما غيبه وطواه ، فأرسل قصيدة طويلة [١] فى رثائها مدح فيها أخاها على عادة الشعراء وقد غلب عليه فيها تصوير لوعته لموتها فشفّت عن حب خفى كشفته الصدمة ، فعبر عن فجيعته ودمعه وطول ليله من أجلها .

وهذه القصيدة الرثائية الطويلة طالما مرت برواية الباحثين دون التصدى لتحليل أغوارها حتى تناولها بالذكر والتفصيل الأستاذ محمود محمد شاكر — فى كتابه النفيس عن المتنبى لذكراه الألفية سنة ١٩٣٦ [٢] — فاستنبط من هذه القصيدة قصة حب كانت رهناً لحياة المتنبى فى حلب ، وهى عشقه الصامت المكتوم لأخت سيف الدولة ، ولعله كان من الأسباب التى أحدثت الجفاء بين الأمير والشاعر .

وقد شاء أبو الطيب أن يخرج من بغداد إلى بلاد فارس [٣] مصطحباً صديقه وراوية شعره علياً بن حمزة البصرى ، فعلم بخبره أبو الفضل بن العميد وزير عضد الدولة الحسن بن بويه الديلمى مراغماً للمهلبى الوزير ، فأرسل ابن العميد يدعوه لزيارته بأرّجان [٤] فى طريقه إلى فارس ، وكان هذا الوزير كاتباً أديباً طمع فى لقاء أبى الطيب ومودته ، فلما وصل إلى أرّجان رآها حقيرة متواضعة فأرسل إلى ابن العميد يعلمه بوصوله ، وكان أبو الفضل توّاقاً إليه

---

(١) تجدها فى قسم المنتخبات فى هذا الكتاب .

(٢) نشرته مجلة المقتطف فى عدد ممتاز للذكرى ، وكان متقناً فى أحكامه ودراسته .

(٣) « اليتيمة » ص ٨٦ الجزء الأول طبع دمشق .

(٤) أرجان : مدينة فى فارس مؤسسها الملك الساسانى قباذ الأول . وكثيراً ما ذكرت فى العصور الوسطى على أنها مدينة على حدود فارس قرب الأهواز . سقطت فى أيدى الحشاشين فى القرن السابع الهجرى .

فخرج بموكب لاستقباله وكان ذلك عام ٣٥٤ للهجرة. ولما رأى أبو الطيب هذه الحفاوة فاضت قريحته تمدّحاً بالمحتفى وتعبيراً عما يخالجه من جوى واعتزاز بنفسه فقال الرائية التى أولها :

باد هواكَ صبرت أم لم تصبرا وبكاك إن لم يجر دمعك أو جرى

وفيها يقول :

من مبلغ الأعراب أنى بعدها جالست رسطاليس والإسكندرا[1]

وجاءت دعوة من شيراز إلى أبى الطيب أرسلها عضد الدولة طالباً زيارته فتردد فى الاستجابة لكن ابن العميد أغراه بقبولها وأطمعه بما قد يتلقاه من مكرمات.

واستقبله رسول من قبل عضد الدولة بالتكريم، ولما طلب أن يسمعه من شعره أنشده القصيدة التى فيها :

فلما أنخنا ركزنا الرما ح بين مكارمنا والعلا

فأحسّ هذا الرسول تعاظم أبى الطيب على الديلم فنقل ما سمع إلى عضد الدولة الذى داخلته الريبة فى ضيفه.

ولما أنشده قصيدته التى استهواه فيها جمال الطبيعة بفارس ومطلعها :

مغانى الشعب طيباً فى المغانى بمنزلة الربيع من الزمان

ولكن الفتى العربىّ فيها غريب الوجه واليد واللسان

وجدها عضد الدولة مديحاً ممزوجاً بذم ، لكنه لم يجد بدّاً من أن يضفى على مادحه وضيفه أصناف الطيب والكساء ومعها صرة من الدنانير.

وقد استطاع عضد الدولة بما أوتى من مكر ودهاء أن يدارى أبا الطيب وهو الذى يعلم طواياه وما يكن لقومه من عداوة وبغضاء[2] فيقال إنه أوعز إلى من

---

(١) رسطاليس : الحكيم المشهور باسم أرسطاليس أو أرسطو أو أرسطوطاليس . والعرب تتصرف فى أسماء الأعجام.

(٢) ذكر لى عميد الأدب المعاصر الدكتور طه حسين حين أعلمته أنى أؤلف هذا الكتاب عن (المتنبى): أنه ينتوى إقامة حملة جامحة على المتنبى لأنه مدح عضد الدولة، فقلت له ذهب إليهم مغاضباً لا راغباً ، وقد خان العرب أدبه فكان ذلك تأديباً منه لهم وتقريعاً ، أفليس يقول بكافور :

وشعر مدحت به الكركدن بين القريض وبين الرقى

وما كان ذلك مدحاً له ولكنه كان هجو الورى

يخلصهم منه بعد رحيله وقد أقام ثلاثة أشهر فى ديارهم .

ولقد ابتلى الشاعر — الذى لم يسالمه الدهر حيثما كان — بأن تعرض له وهو بفارس أبو العباس الصاحب بن عباد طامعاً فى زيارته إياه بأصبهان[1] والحصول على مدحه وإجرائه مجرى مقصوديه من رؤساء الزمان وهو إذ ذاك شاب وحاله حُوَيْلة كما قال ؛ ولم يكن استوزرَ بعد كما يصف ذلك أبو منصور الثعالبى فى اليتيمة[2] وضمن له مشاطرة ماله ، فلم يتم له المتنبى وزناً ولم يجبه عن كتابه ولا إلى مراده فحقد الصاحب عليه وأقام الدنيا وأقعدها يتسقط مثالبه فى شعره ، لكنه كما يقول الثعالبى كان أعلم الناس بغرره وروائعه فى الشعر والفكر ، ويذكر الثعالبى أن سفرته لدى عضد الدولة نجحت وربحت وحصل منه على أكثر من مائتى ألف درهم .

كذلك خرج أبو الطيب من شيراز مكرماً بأحسن توديع ، وقد أشير عليه باصطحاب الخفراء فى عودته إلى بلاده فأبى اعتداداً بنفسه ، فكان أن خرجت عليه سرية من الأعراب [3] — فى رواية الثعالبى — فلقى المتنبى مصرعه مع ابنه مُحَسَّد وبعض غلمانه واقتسم الأعراب ماله ، وكان قاتلوه من أعدائه المتربصين يحملون له الحقد المر .

وإنى لأتصوره مفصول الرأس عن الجسد طريح الفلاة وقد ذهب اللصوص بماله ومتاعه . فأعجب لحياته الضخمة التى كتبت لها هذه النهاية السيئة فى ٢٨ رمضان من عام ٣٥٤ تاركة فى دنيا العروبة والشعر والكفاح دوياً بعيداً وذكراً خالداً ، ما أجدره اليوم أن يكون مشعلا ليقظتنا الراهنة من أجل مجدنا الكبير وحاضرنا الخطير . وملهماً لعمل الملحمة العربية المنتظرة .

---

(١) أصبهان : أو أصفهان مدينة مشهورة بفارس كانت فيما سبق حاضرة الصفويين وهى الآن أهم مدن العراق العجمى . فتحها المسلمون عام ١٩ هـ وقيل عام ٢١ هـ . واستردها المسلمون بعد فتنة نشبت فيها فى عهد الخليفة المعتز وأصبحت منذ ذلك الحين مدينة هامة وحاضرة إقليم كبير ومركز صناعة وتجارة .

(٢) الصفحة ٨٦ .

(٣) ص ١٦٢ .